الإصلاح الاجتماعي منطلقاته وأبعاده

■■ الشيخ ناجي أحمد الزواد*

مع تصاعد وتيرة نغمات الإصلاح لدى أمم العالم أجمع وما سخرته من وسائل الإعلام المتاحة بين مسموعة ومرئية ومقروئة للمشاركة في دفع عجلة ترسيخ قواعد هذا المشروع، إضافة إلى شغل حيز كبير من مساحات المنتديات الفكرية والثقافية لمناقشة محاوره ومنطلقاته وأبعاده، هل نحن بحاجة حقيقية لمشاريع الإصلاح في عالمنا العربي والإسلامي؟

قبل الإجابة على هذا التساؤل لا بد لنا أن نقر أن العالم الغربي قطع شوطاً كبيراً في أصعدة الإصلاح، وتجاوز عقبات كبيرة وكثيرة في تحقيق طموحاته ورهاناته الملحة، ومع ما يعايش من أزمات ومشاكل إلا أنه استطاع تسجيل مكاسب ميدانية هائلة في الأجندة الحداثيه، ليكون أقدر على الانطلاق والتقدم في المجالات العلمية والمهنية، ولولا مساعيه الدائمة للإصلاح لتوقفت عجلة انتاجاته واكتشافاته، وعطائه في البعد الإنساني، بل أنه يقوم على إخضاع وسائله وآلياته للدراسة والمساءلة والبحث، ليقوم على تطويرها وتفعيلها حسب ما يتفق وينسجم مع متطلبات الواقع والحياة، إضافة إلى رفدها بالمستجدات اللازمة.

ولعلنا نعود مرة أخرى ونسأل: ما علاقة ذلك بنا؟ وهل ما يُتناول من شعارات الإصلاح يمس واقعنا ونظمنا ومؤسساتنا؟

ومع يقيننا القاطع أن العالم الغربي بجميع مفاهيمه وأهدافه لا يبتغي بذلك مشروعاً حقيقياً من إطلاق تلك المصطلحات والرؤى، لإدراكه حقيقة الأوضاع، وخوفه من تغيير

* عالم دين وكاتب - السعودية.

المعادلة التي يرتجيها في ظل تلك الأوضاع السائدة، وصفوة القول إن المشروع الغربي يحمل في طياته غايات وأهداف عميقة للغاية، فجاءت هذه الخطوات لتمرير الخطط والمصالح التي يصل بها إلى مآربه.

فبرغم إدراكنا لكل ذلك إلا أن واقعنا بحاجة ماسة إلى دفعات إصلاحية صادقة، لا على صعيد دون آخر، بل في كافة المجالات النظمية والمنهجية، والإدارية والسياسية، ومجرد القراءة السريعة للسبل والآليات القائمة يتضح لنا مدى الخلل العميق الذي يسيطر على تلك الوسائل والإمكانات، مما يعتريها من نقص وخلل، وثقوب وتعرٍ، لصيغها ونظمها، ثم إن الضرورة الملحة تكمن في أن تلك النظم والآليات عبر هذه المسيرة الطويلة التي طوتها فإنها لم تستطع أن تنهض بواقع مجتمعاتها بكفاءة راقية مما تعانيه من أزمات وظواهر مرضية تستشري في أعماقها، فتسلبها الخصوصية والقدرة على التطور والتقدم في مرافق ميادينها الحياتية، ونحن أمة لا تفتقر إلى وسائل المعرفة والبحث العلمي، بل ما بين أيدينا من تراث فكري معرفي يفوق ما أنجزته الحضارات البشرية طول العهود الإنسانية، فضلاً عن الإسهامات العلمية والمعرفية التي حققتها أمتنا طوال مراحل مسيرتها التاريخية، ولقد اقتحمت ميادين علمية متعددة، وأنتجت تخصصات منهجية في أبواب المعرفة، ناهيك عن بصماتها الواضحة على وسائل الحضارة وآلياتها الفاعلة.

تجديد آفاق الوعي:

المجتمعات الواعية هي التي تندفع لتيسير سبل الإصلاح والبحث عن الوسائل والآليات التي تأخذ بيدها لتصحيح مناهجها ومفاهيمها، وتجديد فكرها وثقافتها، لتنهض بها في ركب التقدم والانطلاق، أما المجتمعات الخاملة فإنها تذعن إلى الانطواء والخنوع لموروثاتها وتقاليدها التي تكرس فيها ارتفاع نسبة الجمود والكسل، والقبول بالهزيمة والانكسار.

ولن تكون هذه المعايير من خصائص مجتمع دون أخر، فقد تستولد عند كل مجتمع إذا اعتمد فهم وإدراك القوانين والسنن التي تعينه على الانطلاق والتقدم في غمار ميادين الحياة.

وما نشير إليه من تجديد آفاق الوعي لا يعني القصور في المنهج المتبع، أو ما يلحقه من شوائب، لكنه يعني سبر غور الفهم لتجديد الفهم القائم، لتكون المفاهيم القيمية أكثر قدرة على استنزال الحلول الملائمة والمنسجمة مع متطلبات الواقع الراهن.

ومن جانب آخر لكيلا يلحق تلك المناهج العقم والجمود فتصبح عاجزة عن جاهزيتها وفاعليتها في استنبات مناخ أكثر عافية وسلامة، فتعطل مفاهيمها وقيمها الخلاقة عن النمو والانسجام مع معطيات الحاضر، بما يعيش من هموم وقضايا مستحدثة.

ولكي نقوم على صياغة منهجية متجددة في منظومة العلمية والثقافية والفكرية فإننا

بحاجة إلى تهيئة مساحات حوارية شاملة لكافة التخصصات والمجالات، لترفد المجتمع بالرؤى والمفاهيم التي تلبي لها احتياجاتها، ولعل ذلك يتمحور حول مجموعة ركائز، ومن أهمها:

١ـ إتاحة الفرصة للنقد:

ولا يعني ذلك خرق الضوابط وإشاعة الفوضى من خلال نقد المنهج وتوجيه التهم والإساءة إليه، وإنما إزاء ما نواكب من مجريات مستحدثة، ونواقص متعددة في جنبات واقع الأمة المعاش، نحن أحوج ما نكون لاستحداث وسائل النقد بالبحث والمدارسة للوصول إلى نتائج ترقى بنا إلى مرحلة راقية، تدفعنا إلى التقدم والتطور في كافة الميادين المهنية والعلمية.

ولا غرو أنه ليس من منهج إلا ويعتريه نقص وتلحقه من الشوائب والثقوب إلا ما خصه الشرع المقدس بحصانة وقداسة ذاتية، أما سائر المناهج والمدارس الفكرية وغيرها فإنها عرضة للنقض والمساءلة، ويندرج في هذا السياق ما بين أيدينا من تراث نصي، فمع ما لديه من مكانة مرموقة إلا أن أهل الاختصاص ينبرون إليه كيما يقفوا على صوابه من خطئه، فضلاً عن ذلك التراث التاريخي والإنساني وما حوى من تجارب ومواقف، ليس لنا أن نلبسه رداء العصمة ونجعله في منأى عن التقويم والنقد، وهو يضم الغث والسمين، والصالح وغيره.

ويتجلى لنا في الأسلوب القرآني اتخاذه منهج النقد في معالجة إصلاح أوضاع الرعية، وكان البعد التربوي الإصلاحي يشغل مساحة واسعة في آيات الذكر الحكيم، رغم ما كان يتربى عليه جيل النشء الأول، حيث كان المعلم فيهم أعظم شخصية على ظهر الوجود، وكان منهله أرقى صور الحقيقة وبصائرها، غير أن الكتاب العزيز كشف عن ضرورة هذا البعد الإصلاحي النقدي لتقويم مسارات المجتمع وتصحيح مسيرته.

٢ـ رفد مسيرة الإبداع المعرفي:

لا يخفى بحال من الأحوال أن العالم الغربي في عصرنا الراهن قطع شوطاً كبيراً في نهضة الإبداع والاكتشاف، ولقد بذل جهوداً كبيرة لتتواصل عطاءات المبدعين، ثم إنه لم يقصر الأمر ضمن أطر وأدوات محدودة، وإنما سخر وسائله وإمكاناته لتشمل الجوانب العلمية والمهنية والاجتماعية والسياسية والصحية إلى غيرها من أمور ضرورية تشمل مرافق ميادين الحياة لبناء نهضة مدنية حديثة.

وفي ظل هذه النهضة التي تقدم العالم فيها وطور من وسائله وقدراته لا زال عالمنا العربي والإسلامي بعيداً عن تهيئة السبل والإمكانات التي تحتضن المبدعين والمفكرين،

بل أضحت تلك القدرات غير قادرة على التكيف والانطلاق ضمن المعطيات التي تواكبها، وهو الأمر الذي دفع الكثيرين منهم لأن يرتحل إلى العالم الغربي ليتاح له تفجير طاقاته وقدراته، ومنذ أن أصبح ضعف هذا الاهتمام وعجز دوائره عن استثمار تلك القدرات، تصاعدت نسبة العقول المهاجرة، وهو مما يثير الدهشة والاستغراب إذ إن ثقافتنا ومعارفنا لم تغفل هذا الصعيد بل كان التأكيد عليه ملازماً منذ نشأتها الأولى، ولقد دفعت في هذا الاتجاه بشكل كبير جداً، وكان للعلماء مكانة راقية جعلت ذلك الواقع مزدهراً بتطور العلم والمعرفة في كافة المجالات.

أما في عصرنا الراهن فلسنا نغفل الاهتمام بالوسائل العلمية الحديثة ونقصر عن تلبيات احتياجاتها وإمكاناتها فحسب، وإنما باتت تُنفق المليارات تلو المليارات على أمور كمالية وشكلية، وأصبحنا ننطلق باهتمامات وانشغالات بعيدة كلياً عن التقدم والتطور، ولعلنا نتصور جدلاً أنها انتصارات كبرى نحققها في طريق النهضة والحضارة، غير أنها لا ترقى بحال إلى ذلك المستوى الراقي، فالحضارة رقي وتطور، وشحذ الإمكانات لكسب أكبر قدر ممكن من الحقائق والبراهين العلمية، واكتشاف الوسائل الحديثة، وإذا سلمنا بأن عالمنا الإسلامي والعربي قد وظف في هذا الصعيد حيزاً من قدراته وإمكاناته لإنماء حركة التطور والبناء، فإنها لا زالت قليلة جداً أمام تلك الرهانات، وليس لها دور فاعل في التعاطي والانسجام مع الدور الحقيقي المطلوب، لكن في المقابل تجد الاهتمام الكبير والمبالغ فيه بمجالات الرياضة والفنون وغيرها، ونبذل من جهدنا ووقتنا وثرواتنا الشيء الكثير كيما نطورها ونحسن من أدائها، بل قد تكون هزائمنا على هذا الصعيد باعثاً على خيبة الأمل، وهزائمنا الدائمة في المجالات العلمية والفكرية والإبداعية أمر اعتيادي لا يبعث على الضجر والألم.

هذا فضلاً عما ينفق من أموال طائلة على الأمور الكمالية والشكلية التي لا تعد لوناً حقيقياً من التقدم والإنجاز إلا في المظاهر الحياتية، ولو أنفق جزءًا يسيراً منها على مسيرة التعليم ونشر الثقافة والمعرفة لاستطاعت أن تقدم وضع المجتمع إلى الأفضل والأحسن، ولقد نقلت صحيفة الرياض اليومية إحصاءً بسيطاً عن هذه المظاهر، حيث كتبت تحت عنوان: السعوديون ينفقون ملياري ريال للتسوق في دبي خلال شهر واحد، جاء فيه، قدر حجم إنفاق السعوديين خلال مهرجان دبي للتسوق لعام ٢٠٠٣ قرابة ملياري ريال.. وقدر مسؤلون في المهرجان يزورون المملكة حالياً للترويج للمهرجان القادم الذي تنطلق فعالياته منتصف الشهر المقبل ويستمر لمدة شهر واحد عدد السعوديين الزائرين للمهرجان الماضي بنحو مليون سعودي[1].

ولعل جذر المشكلة أننا لا نقوم بمراجعة ودراسة ذاتية لأحوالنا وظروفنا وواقعنا، فنتعاطى مع كل ذلك بتسليم مطلق، وكأن قدرنا يحتم علينا مجارات تلك الأوضاع.

٣- تصحيح معالم الثقافة:

لقد أضحى الرمز الثقافي عنواناً مهماً في طريق البناء والنهضة، وأصبح ركيزة مؤثرة في بعث قدرات المجتمع وإمكاناته، ومن المقومات الأساسية لانطلاقة الأمم وتقدمها، وقلما تجد مجتمعاً نهض حضارياً دون أن يكون له رصيد ثقافي يصل به إلى التقدم والرقي.

ولقد أدركت الأمم المتقدمة أهمية هذا المعلم الثقافي فغدت تهتم بوسائله وآلياته، وتسخر طاقاتها وقدراتها لتطوير أدواته فيما يعود عليها بالنفع والاستزادة، وتحقيق أكبر قدر من المكاسب والإنجازات، وفي المقابل تبلدت أدوارنا عن استنتاج معلم ثقافي ينهض بواقعنا من السبات والضياع، ويطلق فكراً مسؤولاً مواكباً لرهانات المرحلة.

ومهما بلغ شأو المجتمع وحاز على الثروات والإمكانات فإنه لا يستعيض بذلك عن الفكر والثقافة، فمع أهمية ذلك، إلا أن الذي يطلق المجتمعات ويجدد حيويتها ونشاطها هو ما تملك من قدرات وإمكانات معرفية، وهو الذي يمدها بالتماسك والصمود أمام ما تواجه من أخطار وكوارث ونكبات، لكنها دون ذلك تفتقر إلى الركائز التي تصون وتحفظ هويتها وخصوصياتها الحضارية، ولذا تجد أن الأمم التي يكون لها مخزون معرفي أقدر من غيرها على التحمل وإعادة لحمتها وبنائها من جديد، إضافة إلى أنها تلهم الخبرة والاستزادة مما جرى عليها من سقوط وانكسار.

وعند قراءتنا لتاريخ النشء الأول ومدى تعمقه المعرفي يتجلى لنا ذلك الاهتمام الكبير بوسائل التجديد الثقافي وانسجامه التام مع مسيرة التصحيح، ولذا فإن الهزائم التي يمنى بها سرعان ما تتحول إلى مكاسب وانتصارات في بناء حركته وانطلاقته، وبقدر ما كانت الهزيمة تعزز في تلك المجتمعات الانكسار والتقهقر والانزواء إلى التخلف والانحطاط، فإن المسلمين الأوائل كانت الهزيمة تدفعهم للتأمل والتفكر والمراجعة لتصحيح وتجديد آفاقهم وبصائرهم وثقافتهم ومنطلقاتهم في الحياة، فيتحول كل ذلك بمرور الزمن إلى قوة تدفعهم للتغيير والإصلاح في طور التقدم والبناء.

ونحن اليوم إزاء ما أنجزته المكتبة الإسلامية من تنور معرفي زاخر ملأ أروقتها بالتنوع الثقافي والفكري، ولم يقتصر خطابها ومحاكاتها لجيل دون آخر أو قطاع دون غيره، بل تناولت كافة المستويات والتوجهات لتشمل كافة الموضوعات الضرورية في بناء حركة الأمة ورفد تطلعاتها وانطلاقتها، وفي ظل تلك النهضة الثقافية لا زلنا نعيش العجز والانكفاء على الذات، وكأننا نفتقر إلى رصيد معرفي يقصر بنا عن فقه التجربة والخبرة في استنتاج صحوة ثقافية ترقى بمجتمعاتنا للتطور والتقدم، ثم لم تتوقف تلك الإنجازات على ما جاشت به مكتباتنا الإسلامية من مآثر فكرية وثقافية مفعمة بالتعاطي المعرفي، وإنما ما وصلنا من موروث حضاري وقيمي من عصور النهضة والانفتاح أبان الحقب الإسلامية الأولى عم آفاق الحياة، وأنار البصائر والعقول بوسائل النهضة والإبداع، فنحن أمة تحسد

على ما تملك من مخزون معرفي هائل، غير أننا أهملناه وضيعناه حين انشغلنا بمناهج ونظم لا تتناغم ولانسجم مع معطيات حاضرنا وواقعنا، فأصبحنا كمن ضيع المشيتين.

اغتيال منهج النهضة:

لا إخال أننا بحاجة إلى إعمال الفكر وإشعال بصيرته ليتجلى لنا أن الغرب من خلال توجيهاته وتصريحاته عمد إلى ضرب منهج النهضة الذي تعيشه شعوب العالم وعلى الأخص منطقة الشرق الأوسط، وإذا كانت خشيته الدائمة من استيقاظ هذه الشعوب وصحوتها تدفعه للمناداة والضغط للتخلي عن مناهجها وأفكارها، فإن خشيته الأشد تتماشى مع المخاوف الصهيونية التي تخشى من تصاعد هذا المد تجاه وجودها وبقائها، لاسيما وهي الحليف الأقوى الذي يرعى لها مصالحها وامتدادها، فكان أفضل وسيلة لتفتيت تلك القوى وشل حركتها التعرض إلى مناهجها وفكرها الذي يستنبت قوى الإرهاب -حسب زعمهم-.

ولعل مما يثير الاستغراب ما نلمسه من مساعي حثيثة لهيئة الأمم التي تُدين ما تلقاه الأقليات الدينية من قهر وظلم ومصادرة لحقوقها، فتنشر عبر دراساتها وتحقيقاتها الميدانية بين فينة وأخرى عن تلك المآسي لتجريم هذا النظام أو ذاك، وللوهلة الأولى قد يطيب ذلك للنفوس وينتابها السرور والبهجة العظيمة، غير أن كل ذلك يتلاشى حين تجدها تتغاضى عما يقدم عليه الصهاينة من قتل وتشريد يومي على أرض فلسطين المستباحة، وكأنها خارج نطاق المنظومة الفلكية التي نعيش فيها، بل إنها تستميت دفاعاً واستبسالاً في سبيل عدم الإضرار بمصالحها وهويتها، وليس من بد أن ذلك ينم عن تحيّز صارخ، فهي تحارب الدنيا كلها دون هذه الشرذمة التي يسوغ لها أن تستخدم كل الوسائل واتباع كافة السبل كي تحافظ على بقائها، وربما جاءت الإدانة دون تجريم لذلك النظام الدموي، الذي نشأ من أول يوم على جماجم الأبرياء والضعفاء، فذريعة حقوق الإنسان تتوقف عند هذا الحاجز، وتتعطل كافة قوانينها ومبادئها دون المساس بهذا الكيان المتصهين الغاصب.

وعود على بدء فإننا لا ندعي أو نزعم أن ليس بين تلك المناهج والأفكار رؤى ومفاهيم آخذة في التطرف والغلو، بل ويسري إزعاجها تجاه أطياف وفئات مختلفة في المجتمعات المسلمة، كما أنها وليدة المناخ الصدامي الذي نشأ ويعيش على العدوانية والمواجهة لسائر التوجهات والأطياف الأخرى، وكل ذلك قد لا يألوا اختلافاً كبيراً في التوصل إلى تلك النتائج، غير أنها أضحت الذريعة التي من خلالها تقمع أية نهضة وتصور، للخلاص من الواقع الموبوء الذي تعيشه مجتمعاتنا وأمتنا.

وإذا كنا نصل إلى هذه النتيجة فإننا ندرك مدى المخطط الغربي وتفكيره، فإننا كنا نباشر اغتيال هذا المنهج من أمد بعيد، ذلك حينما ابتعدنا بمنطلقاتنا وأفكارنا عن هدي

الشريعة الغراء ومقاصدها، وأضحت توجهاتنا تستميت في إسقاط الآخر المشترك ومواجهته بكل السبل والوسائل المتاحة لدينا، مع يقيننا أن لا مجال لتحقيق المكاسب والأهداف عند تخلينا عن أصالتنا ومبادئنا التي دعت إلى تخلق الفكر والسلوك والمنهج، وأكدت على تماسك اللحمة، وشد أواصر الأخوة القائمة، ومن هذا المنطلق يذكرنا القرآن الكريم تكراراً ومراراً بضرورة الانشداد إلى هذه الحقائق، فيقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّه وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّه مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢]، إضافة إلى ما نعيشه من ابتعاد حقيقي عن منابع فكرنا وأصالتنا، فنمارس على المستوى الجمعي تغييب مفاهيم ورؤى لها من القدرة والتأثير على واقعنا وما نعيشه من أزمات وظواهر مرضية مستعصية.

ولقد أدرك الأعداء منذ زمن بعيد أن أفضل السبل والوسائل لمواجهة حركة النهضة وشل قدرات منهج الصحوة هو بث الفرقة بين المسلمين، وإشغال الداخل الإسلامي بمسائل الخلاف وأحيائها كلما ناسب الظرف والمكان، كي لا تتاح للمسلمين فرصة، يستطيعون من خلالها إعادة صياغة أفكارهم، وتوحيد صفوفهم، وهو من الخطورة بمكان تجاه تلك المخططات والمكائد التي رسمها لحفظ المصالح والأهداف التي يبتغيها، ولن يستطيع المسلمون أن ينهضوا ويحققوا مكاسب حقيقية إلا بالرجوع إلى تلك المبادئ الأخوية المتماسكة، والاستنباط من معانيها القيم والمثل التي تنهض بواقع المسلمين.

ثم لا بد من الإشارة إلى أن منهج التجديد واجه عبر مراحله الطويلة عقبات متتالية كانت تهدف بالدرجة الأولى وضع الحواجز والسدود لحجب الحقائق والمفاهيم الأصيلة عن الاستيطان في مواطنها ومنابعها، وكانت دعائمها تقوم على الأسس التالية:

١ـ إعاقة فاعلية العقل:

عبر المسيرة البشرية الشاقة والطويلة لم تأت رسالة أو دعوة تهتم بأدوات العقل وقدراته كما جاء على لسان رسالات السماء، فبعد أن كان مبعداً كلياً عن الحياة، ويعاني إقصاءً تاماً في جل دوائر المجتمع، جاءت رسالة الدين لتعتقه من الإصر والأغلال التي شلت فاعليته ونشاطه، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣] ولقد أدركت رسالة الشرع المقدس ضرورة استنهاض مآثر العقل ودفع ما يعانيه من إقصاء طوال عهود البشرية، وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث عن مهام بعث الأنبياء والرسل عليهم السلام، قال عليه السلام: فبعث إليهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي

نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة[٤].

ثم بعد هذه الجهود الكبيرة والمسيرة الشاقة لتحرير هذا الرافد وإطلاقه في دروب الحياة، تأتي بعض المذاهب والأفكار لتعيد العقل إلى سباته وتغييبه عن عطاءاته في الحياة، ولم تكن هذه المذاهب بعيدة عن الواقع، بل كان قسم منها ينطلق من حاضرة الإسلام، غير أنها كانت تدفع في إقصاء دور العقل وفاعليته، وكانت تنطلق بمسميات مختلفة، فتارة قدرية، وأخرى جبرية، وصوفية، إلى غيرها من الصيغ والمناهج التي جهدت لتعطيل انبعاث الفكر وإغلاق أبوابه عن التعاطي والانسجام مع ضرورات الحياة ورهاناتها الحرجة، وكان لها دور كبير في تحجيم دور العقل وتعطيل منابعه وقدراته عن طريق تلك التصورات التي دأبت على نشرها.

٢ـ قصور في فهم فقه السنة:

بقدر ما جاشت به السنة العصماء من مآثر وقيم خلاقة ترفد واقع الحياة، وتلهمه التطلع والانبعاث في رحاب الكون الرحب، وتضع له الحلول لمعالجة أوضاعه، وتواكب قضاياه وأزماته، لتنتشله من ظواهره المرضية، لا زلنا نعيش قصوراً في فهم وفقه ضرورات السنة المطهرة ومدلولاتها ومقاصدها، ولعل ذلك التصور ناتج عن إهمال قراءاتها ودراستها بوعي وإمعان، فأضحى التمسك بنصوصها قشرياً لا يتعدى فهم واقعها وظرفها وغايتها، مما دعا أن تكون الاجتهادات التي تستنبط من قبل الجماعات والتوجهات مشوشة تفتقر إلى الشمولية في فهم الموضوعات والقضايا القائمة، ولا ينطبق هذا الشأن على فئة دون أخرى، بل يشمل كافة التوجهات بشتى مستوياتها ومنطلقاتها، وانطلاقاً من قصور الفهم وتشويش الرؤية وردت جملة من التأكيدات لتعزز أهمية دراسة النص، ليس لأنه قيمة تراثية قيمية فحسب، وإنما لكونها مواثيق وأسس حقائقية قائمة ومنسجمة مع معطيات الواقع ومجرياته، إضافة إلى أنها منبثقة عن لسان الوحي، ومعين الهدى، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[٥]. وورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل دراية لا عقل رواية فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل»[٦].

ولقد وردت تلك التأكيدات لخشيتها من مغبة تطور قصور الفهم والفقه لمدلولات السنة المطهرة الحقيقية، وتحولها بمرور الزمن إلى طقوس وعادات فارغة من محتواها وروحها الأصيلة، ونحن اليوم نعاني قصور هذا الفهم، حيث أضحت هذه الأحكام النصية بعيدة عن هموم الواقع ومستحدثات العصر ورهاناته، وأصبحت حبيسة ضمن أطر وقضايا محدودة لا تتجاوز دوائرها ومحاورها، ولعلنا نبذل اهتماماً كبيراً في تفكيك الألفاظ وشرح مفرداتها دون أن نشغل مساحة كافية في فقه المعاني والمقاصد، وربما صرفنا الكثير من الجهود الكبيرة على الأمور الجانبية في الوقت الذي نحن أحوج إلى صرفها في قضايانا

المصيرية والجوهرية.

٣- الارتهان للنظم التبعية:

لقد استطاعت النظم الاستعمارية التي بسطت هيمنتها وسلطتها العسكرية والثقافية أحقاباً متلاحقة على الواقع الإسلامي أن تترك أثراً ملموساً على مناهج الأمة وفكرها، وجعلته رهيناً لتلك الثقافة، الأمر الذي أوعز إلى قطاعات من أبناء الأمة بالتقليد والاتباع للمناهج والأفكار الغربية، واستهجان منطلقات الثقافة الإسلامية ومرتكزاتها، رغم ما قدمت من إنجازات ومكاسب هائلة للحياة والإنسانية جمعاء.

وهذا الفكر التبعي لم تكن ميولاته وتوجهاته هي التي تدفعه للتقليد والاتباع فحسب، وإنما استنكاره للمفاهيم والرؤى التي انبنى عليها فكر المسلم وثقافته في الحياة.

ولعل من الدعاوى التي أخضعته للانقياد لتلك المناهج هو ما أصاب الأمة من هزائم وانكسارات طوال العهود التاريخية المنصرمة، ناهيك عن أنها لم تستطع أن تنهض بالواقع مما يعايش من تقهقر وتخلف في جل ميادينه الحياتية، سواء الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية، فسبَّب ذلك الفشل الدريع الفرار إلى اعتناق تلك المناهج الوضعية التي استطاعت أن تحقق المكاسب والإنجازات والإبداعات المبتكرة في جل ميادين الحياة.

ويجدر الإشارة إلى أن أولئك الذين انساقوا لتلك النظم واستعاضوا بها عن مورثاتهم ومرتكزاتهم لم يقدموا حلولاً وعلاجاً لأوضاعهم، أو أنهم ابتكروا مناهج ونظم تغير حركة الواقع ومسيرته، بل على العكس من ذلك، إذ ازدادت الأوضاع سوءاً وتفاقماً، وفي هذا السياق يقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه -الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف-: وقد جربت مجتمعاتنا الحلول المستوردة من الغرب والشرق، فلم تحقق أملها المنشود في تزكية الفرد، ورقي المجتمع، ولا في صلاح الدين، وعمارة الدنيا، ولم تجن من ورائها إلا النكسات والتمزق الذي تشهد آثاره اليوم[٧].

الفكر المسؤول نقطة الانطلاق:

لا يكفي أن يكون للإنسان منهجاً وفكراً في هذه الحياة فحسب، لكن ينبغي أن يكون ذلك الفكر والمنهج دافعاً لحركته وإنارة بصائره بالرؤى والمفاهيم التي تطلقه في آفاق ميادين الحياة الرحبة، ذلك هو الأهم، أما إذا كانت الأفكار شائخة ومتبلدة وعاجزة عن التعاطي والانسجام مع معطيات العصر الراهن وحاجاته الضرورية فإنها تكاد تكون غير مجزية ومفيدة.

فالأفكار والمناهج التي تولد الانهزامية وتكرس الجمود في الواقع، وتبعث على الدعة والكسل

فإنها لا تعين حركة المجتمع على البناء والتغيير والإصلاح، وإنما تعزز فيه الثقافات التبريرية التي تزيد من فشله وتقهقره، وتلقي به في ردهات الضياع والغياب عن الواقع والحياة.

ونحن في عالم اليوم الذي يعيش نهضة فكرية زاخرة بالحداثة والمعرفة، وبلغت فيه أدوات العلم مراحل متطورة ومتقدمة، ينبغي أن نجدد صياغة مناهجنا وأفكارنا لتواكب ضرورات العصر، ومقتضيات مراحله الراهنة، فنبني ثقافة مسؤولة قادرة على تعبئة الجماهير الغفيرة بالرؤى والقيم الخلاقة التي تبعثها على النشاط والفاعلية، وتستثمر مخزونها الثقافي والفكري.

ولقد أضحت أفكار وثقافة أجيالنا الراهنة تعايش مزيجاً متناقضاً يستدعي ولادة شخصية ازدواجية، وتلونات فكرية وثقافية غير متناغمة ومنسجمة مع منطلقات ومرتكزات منظومة المفاهيم والرؤى لاصالتنا، فتارة تتسم بلبس عباءة الدين والشريعة السمحة، وأخرى تتماشى وتنساق للسلوكيات الهدامة والمنحرفة، التي لا تمت لمقاصد الدين وقيمه المثلى بعلاقة وصلة، فضلاً عما تقرنه بنظمها وقوانينها لتؤسس وفق معطياته وآفاقه قانوناً ومنهاجاً لا يجاري الواقع والحياة.

ثم من الجدير أن نذكر أن الذي يهدد المنهج الثقافي الأصيل ليس ما يواجهه من أخطار خارجية تبتغي سلب الهوية والخصوصية فحسب، وإنما نتيجة ما تعايشه المجتمعات من ابتعاد حقيقي، واتباعها لثقافات وأفكار تكرس واقع الفشل والتقاعس والكسل، بيد أن الذي يطلق المجتمعات ويجدد عطاءاتها وتضحياتها، ويفتح لها آفاقاً واسعة على بوابة الحياة، ويدفعها في مجالات التقدم والرقي، هو الفكر المسؤول.

ولا غرو أن الاعتزاز بالثقافة والفكر واللغة لا يغيّر أو يصلح من مصائر المجتمعات إلا بما تحمل من نموذج فاعل يستنهض قدراتها وإمكاناتها.

ومن ملامح الفكر المسؤول المميزة أنه يستند إلى المحاور التي تدفع حركة المجتمعات إلى النهضة والتطلع، وتشحذ مسيرتها بزخم هائل من الرؤى والأفكار الهادفة، التي تلبي احتياجاتها ومتطلباتها، ومن أبرزها:

١ـ إطلاق مسيرة الوعي:

إن الذي يسلب المجتمعات مكانتها ويفقدها قدراتها وإمكاناتها هو ما تفتقر إليه من وسائل الوعي، فكلما كانت عديمة الفهم والفقه لمجريات الأحداث والتبصر بمقتضيات الواقع والحياة، كانت أقرب للسقوط في شرك الاستلاب والضياع، وهو الأمر الذي أودى بالأمة إلى ما هي عليه من تخلف وانحطاط، وتفاقم الأزمات والانتكاسات في نطاق دوائرها ونظمها، ولو أنها جهدت بتعبئة الجماهير بوسائل الوعي لاستطاعت أن تتقدم في جميع مجالاتها.

وليس من ريب أن نتاج المجتمعات ومساعيها الحثيثة ستكون عرضة للأخطار والضياع ما لم تتسلح بأدوات الوعي، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: العامل على غير بصيرة كالسائر على طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً[٨]. بل إنما تتضاءل الخسائر وتتصاعد معدلات الكسب عن طريق امتلاك هذه الوسائل، يقول الإمام العسكري عليه السلام: العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس[٩].

٢ـ مواجهة بؤر فكر التقاعس:

بقدر ما تترك الفيروسات الفتاكة من أثر كبير على جسم المريض حين تهجم عليه فتشل حركته ونشاطه، فإن الأفكار الخاملة والسقيمة تحجب آفاق الحقائق والرؤى عن بصيرة الإنسان وتعيقه عن التقدم وإطلاق مساعيه في رحاب الحياة، وإذا كنا نكثر من وسائل الوقاية والاحتراز كي لا نصاب بعدوى الفيروسات الخطرة، فإن ما ينبغي لنا أن نحذره تلك الأفكار ووسائلها، لنحد من انتشارها في أروقة مجتمعاتنا، لأنها أخطر من تلك الأمراض التي تصيب الجسد.

ولقد أضحت الأفكار والثقافات في ظل تقدم وسائل الاتصال والتكنولوجيا تتجاوز العوائق والسدود، وتخترق الآفاق، فهي تنتشر بشكل سريع وتتسلل إلى أدمغة أجيالنا، ولم تقتصر في عصرنا الراهن على صعيد في توجيهها، بل إن وسائلها تكاد تغرق مساحات المجتمع بكثرتها وتنوعها، فبين مقروء ومسموع ومرئي، ويتزايد انتشار أفكارها عبر الشبكة العنكبوتية، الأمر الذي يستوجب تضاعف المسؤولية وفضح تلك الوسائل وكشف مخططاتها، ليس لأنها تحمل لوناً حضارياً وتقدمياً، إنما لما تقوم به من تعزيز وتكريس واقع التقاعس والانزواء عن مجريات الأحداث وقضايا العصر، وإشغال محيط الحياة بالرذيلة والميوعة والفساد، والتشجيع عليها، بحيث لا يستشعر الإنسان معها مدى التردي الذي يحيط بواقعه ومصيره، ولا ينطلق عبر منهجه المسؤول في إصلاحها وتغييرها.

إن فكر التقاعس يسعى جاهداً لإرساء الأسس والركائز التي تزج بالإنسان في ردهات الضياع وتغييبه عن الواقع، ويتصدى بكل ما يملك من سلطة وقدرة لإعاقة حركة الأفكار الناهضة والمتفتحة بتشويه منطلقاتها ومقاصدها، وما لم تنهض المجتمعات بأعباء المسؤولية وتبادر للإصلاح والتغيير فإنها ستبقى على هذا الحال المتردي، ولن يتسنى لها أن تتخلص من ظواهرها المرضية.

٣ـ تضافر الجهود المشتركة:

إذا كانت الحرية والكرامة هي أسمى وأغلى ما ينافح عنه الإنسان، ومن أولويات مساعيه وجهوده في هذه الحياة، فإنها لا تُطوَّع عن طريق الأحلام المخملية والتمنيات

الخائرة، أو التذرع بالقوى الغيبية الخارقة، إنما هي بحاجة إلى تضحيات وجهود جبارة، واقتحام أتون الصعاب، يقول الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وكما أن جيل النشء الأول في فجر الإسلام لم ينل تلك المكتسبات والإنجازات العظيمة إلا بمشاركته الفاعلة، وتضحياته الجزيلة بكل ما يملك من قدرات وإمكانات، فإن مناهج الإصلاح والتغيير التي نتطلع إلى تحقيقها لا يمكن أن نرسي قواعدها وركائزها إلا بتضافر الجهود وشحذ الهمم المشتركة لاستنبات المناخ الملائم لانبعاث قيمها ومبادئها.

وليست هذه المسؤولية ملقاة على عاتق المفكرين والمنظرين فحسب، وإنما هي مسؤولية سائر أطياف المجتمع بكل مستوياته وتوجهاته، إذ ينبغي أن يكون هماً مشتركاً تندفع كافة قوى المجتمع لإطلاق حركته، وفي الحديث عن النبي ﷺ: ألا كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم[١٠].

حاجتنا إلى المصلحين:

مهما بلغت المجتمعات سن الرشد وكان لها من الثراء الفكري والإمكانات المعرفية، فإنها لا تستغني عن دور المصلحين، بل هي بحاجة ماسة إلى المصلحين والمغيِّرين الذين يرقبون حركتها ويرفدون مسيرتها بالرؤى والتطلعات التي تدفع بنهضتها وفاعليتها إلى التقدم والرقي.

وإذا عدنا بأنظارنا قليلاً لأرشفة التاريخ سيتجلى لنا ضرورة البعد الإصلاحي وأهميته في حفظ مسيرة الأمة وصيانة منطلقاتها وأهدافها، حيث مارس رجال الإصلاح عبر مسيرتهم الطويلة والشاقة دور الإصلاح والتغيير في الواقع، وكادت وسائل الأعداء ومخططاتهم تتمكن من السيطرة التامة على إمكانات المجتمعات وثرواتهم، غير أن تصاعد المد الإصلاحي كان يعيد حاضرها إلى قيمها ومبادئها، وكلما ازدادت الضغوط العدائية على المجتمعات الإسلامية لطمس قيمها ومقدساتها انبعث المصلحون ليجددوا الآليات والأدوات التي تنهض بالواقع من التبعية والانقياد للأجنبي، وتعبئتها بالفكر والثقافة الأصيلة التي تنتمي إليها، ورغم التراجع الكائن بين صفوف الجماهير وبُعْد الواقع عن روافده وموروثاته، كانت وظيفة المصلحين تبادر إلى تصحيح المفاهيم والرؤى، والكشف عن الرؤى والمضامين المساعدة على بقاء هذا الواقع وتجذره في عمق الثقافة والفكر.

ونحن اليوم في ظل مواكبة انتشار العلوم والمعارف وتقدم آلياتها وأدواتها، وإنجازاتها الكبيرة على جل الصعد، أحوج ما نكون إلى المفكرين والمصلحين والمغيِّرين، ليخرجوا بالمجتمعات من ردهات النفق المظلم، فيضعوا لها الرؤى والتصورات التي تعالج أوضاعها

وأزماتها، وتعتقها من تبعيتها واستغلالها، لتؤسس لها نواة نهضوية ذات طابع منظومي أصيل يرتكز على الأصول الثابتة التي تدعم هذا البناء.

وتأتي الضرورة القصوى لاستدعاء جهاز الإصلاح في دوائر المجتمعات، ليس من منطلق ديني وإنساني فحسب، وإنما للضرورة الحياتية والدوافع الذاتية، فما يهدد المجتمعات من مخاطر وخطوب يفوق كل تصور، ولا يمكن التصدي لتلك الهجمات العدائية التي ترمي إلى تجريد وسلب الهوية والتراث والخصوصية، إلا عن طريق هذه الدائرة المصلحة، التي تفضح تلك الوسائل والمخططات، وتمارس دور التثقيف ونشر الوعي في ربوع الأمة.

خاتمة:

وخلاصة القول فإننا رغم ما نملك من موروث فكري ومنظومة ثقافية إضافة إلى الإمكانات المتنوعة في جل المجالات، فإننا بحاجة ماسة إلى مراجعة نقدية، ودراسة ذاتية دائمة لمناهجنا ونظمنا لتأتي متوافقة ومنسجمة وفق متطلبات الواقع وضرورات العصر الراهن، ليتسنى لنا صياغة منهجية متجددة، تنهض بواقعنا من السبات والضياع، وتدفع بالمساعي والجهود إلى قنواتها الفاعلة.

الهوامش:

(١) جريدة الرياض، الاثنين ٢٧ شوال ١٤٢٤، العدد ١٢٩٦٧، السنة ٣٩.

(٢) سورة الأنفال، آية ٤٦.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٥٧.

(٥) سورة النجم، آية ٤ - ٣.

(٦) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ١، ص٤٣، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م.

(٧) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص٤٨٥، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م.

(٨) القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص٢٠٢،

(١٠) الحراني، الحسن بن علي بن شعبة، تحف العقول، ص٢٦٦، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٤هـ.

(١١) الري شهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٣٤، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ، ١٤٦٢هـ.ش.

(١٢) الري شهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج٤، ص٣٢٧، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ، ١٤٦٢هـ.ش.